

مداخلة للمشاركة في المنتدى الدولي متعدد التخصصات:

"أمن المجتمعات بين نبذ الكراهية وتعزيز قيم التسامح"

المحور1: الدراسات التاريخية والدينية

بعنوان: قيم التسامح لدى علماء المغرب الأوسط ق7/هـ/13م قراءة من خلال كتاب:

"عنوان الدراية للغبريني"

د/فهيمة حناش

جامعة العربي بن مهيدي "أم البواقي"-الجزائر-

fahima.hannache@univ-oeb.dz

الملخص:

تتناول هذه الدراسة موضوع مظاهر قيم التسامح في سلوكيات علماء المغرب الأوسط خاصة منهم البجائيين من أهل البلد أو الوافدين عليها من المشرق والأندلس، ممن استقروا بها وكان لهم تأثير فاعل في الحياة الاجتماعية والفكرية والدينية بالمدينة خلال القرن 7هـ/13م، انطلاقا من قراءة وتحليل في كتاب: "عنوان الدراية للغبريني" باعتباره مصدر تراجم وسير هام، اهتم صاحبه بذكر وتتبع حياة هؤلاء الأعلام وصفاتهم والوظائف التي تقلدوها والمؤلفات التي صنّفوها، وأبرز الأحداث التي مرت في حياتهم، وذلك بأسلوب عرض تاريخي متميز، حيث أتاح لنا مجال قراءة تلك السير، الوقوف على أهم مظاهر قيم التسامح في سلوكياتهم وشخصياتهم العلمية وما اتصفوا به وجسدوه في تعاملهم من قيم العفو والعدل والإخلاص والصبر على المحن، وحسن الرد عند الخلاف، والتسامح الديني مع غير المسلمين.

Summary:

This study deals with the issue of the manifestations of the values of tolerance in the behaviors of the scholars of the Middle Maghreb, especially among them the Bejaia'is from the people of the country or those who came to it from the East and Andalusia, who settled there and had an effective influence on the social, intellectual and religious life in the city during the 7th century AH / 13th century AD, based on a reading and analysis in the book: "The Knowledge Title of Al-Ghabrini" as an important source of biographies and biographies, its author was

interested in mentioning and tracing the lives of these notables, their characteristics, the jobs they assumed, and the books they compiled, And the most prominent events that passed in their lives, in a distinguished historical presentation style, as it allowed us to read those biographies, to stand on the most important manifestations of the values of tolerance in their behavior and scientific personalities, and what they characterized and embodied in their dealings of the values of forgiveness, justice, sincerity, patience in adversity, and good response when disagreement. and religious tolerance towards non-Muslims.

مقدمة:

لقد شهد المغرب الأوسط خلال القرن 7هـ/13م نهضة فكرية متميزة؛ أسهم في إحداثها كوكبة من العلماء الذين برزوا في فنون ومجالات علمية مختلفة، خاصة بحاضرة بجاية سواء كانوا من أهل البلد أو من الوافدين عليها من المشرق أو الأندلس، والذين أمكننا التعرف عليهم من خلال مصدر تاريخي هام ذو طابع ترجمي ألا وهو كتاب: عنوان الدراية لأبي العباس أحمد الغبريني، حيث سنحاول من خلال هذه الورقة البحثية التعريف بشخصية الغبريني، وبكتابه وما انضوى عليه من سيرة عطرة لتراجم هؤلاء الأعلام الفاعلين، مع التركيز على تتبع مظاهر قيم التسامح في سلوكياتهم وتعاملاتهم مع مختلف فئات وطبقات المجتمع، من الفئة العاملة أو الطبقة الحاكمة أو العامة انطلاقاً من معالجة الإشكالية التالية: فيما تجلت مظاهر قيم التسامح لدى علماء المغرب الأوسط من خلال كتاب عنوان الدراية للغبريني؟ وماهي المواقف التي اعترضت حياتهم وأظهروا فيها جانب التسامح والتفهم والاحتواء في التعامل؟

ولدراسة هذا الموضوع اتبعنا المنهج الوصفي التحليلي؛ من خلال التعريف بأبرز الشخصيات ووصف وتحليل المواقف الهامة في حياتهم والتي تجلت فيها قيم التسامح والعفو في سلوكياتهم وتعاملاتهم مع الآخرين. كما تهدف هذه الدراسة إلى التعريف بالشخصيات الفكرية العاملة بالمغرب الأوسط خلال القرن 7هـ/13م، من خلال مصدر تاريخي جدّ هام ركز على أعلام حاضرة بجاية خلال العصر الإسلامي، من خلال تسليط الضوء على تتبع سيرهم وإيراد تراجم عنهم، تكشف عن مدى الإسهام الحقيقي والتأثير الفاعل في سلوكياتهم على المجتمع بمختلف فئاته، ليس من الناحية الثقافية والعلمية فحسب، وإنما في جوانب إنسانية وسلوكية هامة ترجمتها

مواقفهم وتعاملاتهم من مظاهر العفو والتسامح، ورحابة الصدر، وحسن الرد أثناء الخلاف، والتسامح الديني مع غير المسلمين، وذلك انطلاقاً من العناصر التالية:

أولاً: التعريف بالغبيري:

أبو العباس الغبريني، ت704هـ/1304م: هو أحمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن علي الغبريني، وكنيته: أبو العباس، أما شهرته الغبريني فنسبة إلى غبري بطن من قبائل الأمازيغ البربر في المغرب الأوسط، ولد في أواسط المائة السابعة سنة 644هـ/1246م (الغبيري، 1979، صفحة 9)، حيث نشأ ببجاية وتعلم بها مختلف العلوم وبخاصة العلوم الدينية، حفظ القرآن الكريم واهتم بالقراءات والفقه وأصوله، والتفسير والحديث، إلى جانب اعتناؤه باللغة والأدب والتاريخ والمنطق والتصوف (نويهض، 1980، صفحة 248).

أخذ العلم عن شيوخ كثير إذ "بلغ عدد الشيوخ الذين سمع منهم وأخذ عنهم نحو السبعين شيخاً من أعلام المغرب الأوسط وإفريقية والأندلس"، فاستفاد مما أخذ عنهم من علوم، حتى أنه أورد بمؤلفه برنامجاً للمشيخة الذين تتلمذ عليهم، وترجم لهم في كتابه القيم عرفانا بصنيعهم، ومن أبرز شيوخه ذكر: محمد بن عبد الله بن عبادة، وأبي محمد عبد العزيز القيسي، حيث قرأ عليهما وسمع منهما وحضر مجلسهما ومن الكتب الفقهية والمذهبية التي قرأها عنهما: التهذيب، الرسالة، الجلاب والتلقين ومختصر ابن أبي زيد وغيرها، كما أخذ أيضاً عن العالم الجليل أبي محمد عبد الحق بن ربيع علم التصوف، وبعضاً من علوم الرواية، إذ كان لكل شيخ طريقته وأسلوبه في القراءة والشرح والتبسيط والمذاكرة والمباحثة (بلعباس و مرتاض، 2018، الصفحات 54-55).

ونتيجة تكوينه العلمي الرصين وتنوع المعارف والعلوم التي حصلها فقد تولى الغبريني عدة مناصب منها: خطة القضاء بمواضع كان آخرها بمدينة بجاية "فكان في حكمه شديداً مهيباً، ذا معرفة بأصول الفقه وحفظ لفروعه، وقيام على النوازل وتحقيق للمسائل" (النباهي، 1983، صفحة 132)، إلى جانب قيامه بالتدريس حيث اجتمع

حواله طلبه العلم للأخذ عنه والاستفادة منه وبخاصة في علم الفقه، وهو الأمر الذي شهد به بعض طلبته ممن ترجموا له، وأوردوا أخبارا عن سيرته العلمية والفكرية (بلعباس و مرتاض، 2018، صفحة 55).

أما عن وفاة هذا العلامة فإنّ المصادر التي أُرّخت لذلك قد تباينت روايتها حول السبب والزمن وإن كانت تتفق حول مسألة أنّ أبي العباس الغبريني قد وُشيّ به عند حاكم بجاية من طرف الحاشية بتهم باطلة فسجن على إثرها، وكان مرد هذه التهم نوايا سيئة مضمرة من طرف البعض بغضا وحسدا في شخصه ومكانته العلميّة، كما أنّ مردها عائد أيضا إلى محاولة عرقلة مسار المصالحة الذي كان يُسعى له بين أبو البقاء مع ابن عمه "أبي عبيدة" لجمع واتحاد إمارة بجاية وتونس للوقوف في وجه مدّ بني مرين (بلعباس و مرتاض، 2018، صفحة 55)، حيث قتل الغبريني على إثر ذلك سنة 704هـ/1304م (القسنطيني، 1983، الصفحات 338-339)، وبذلك فقد راح ضحية هذا الفعل عالم جليل فدّ أفنى عمره في طلب العلم ونشره، مخلفا وراءه سيرة عطرة وعدد من المؤلفات كان من أبرزها كتابه: عنوان الدراية.

ثانيا: التعريف بكتابه "عنوان الدراية":

إنّ كتاب: "عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية" للغبريني يدخل في صنف كتب التراجم، لكنّه يتميّز عنها بمعلوماته الثريّة والدقيقة التي تحُصّ علماء بجاية وتكوينهم المعرفي والخطط السياسيّة والدينيّة التي تقلدوها والدور الذي أدّوه، بحكم أنّ صاحبه "أبو العباس الغبريني" قد عاش وتوفي ببجاية، فهو شاهد عيان على مختلف مظاهر الحياة السياسيّة والدينيّة والاجتماعية والثقافية بها، كما أنّه وأثناء عرضه لتراجم العلماء قد أورد معلومات عن الخصائص العمرانية لمدينة بجاية وخططها وأهم مؤسساتها، إذ يمكن اعتباره واجهة مونوغرافية للمدينة (جدالة، 2015، صفحة 189)، وهذا الكتاب نشر لأول مرة في الجزائر سنة 1910، بعناية الأستاذ محمد بن أبي شنب، كما نشر في طبعة ثانية سنة 1979 حققه وعلق عليه عادل نويهض من منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت وهي الطبعة المعتمدة في هذه الدراسة.

وقد وفق الغبريني من خلال كتابه في جمع التراجم وترتيبها، حيث ترجم لـ 109 شخصية علمية ، كما أنه لم يقتصر على الترجمة لعلماء بجاية فحسب، بل تعداه إلى العلماء الوافدين عليها من الأندلسيين والمشاركة(عقبة، 2016، صفحة 380)، أما عن المنهج الذي اعتمده في كتابه فإنه يبدأ بذكر صاحب الترجمة اسمه وكنيته وصفته كما يذكر في بعض الأحيان نسبه بعد أن يتحقق من ذلك، وما إذا كان صاحب الترجمة من أهل بجاية أم من الوافدين عليها من المشاركة أو الأندلسيين ممن استقروا بها، ثم يورد حاله متعرضا لما اشتهر به من عناية بعلم أو أدب وأبرز مصنفااته، إضافة إلى ما تقلده من مناصب ووظائف كالتدريس والإمامة وتقلد الكتابة أو الوزارة أو تولى القضاء وغيرها، ويختتم الترجمة بنبذة من شعر المترجم له إن كان شاعرا، أو نماذج من حكم أو أقوال له إن وجد ذلك، كما يورد في حالات عديدة تاريخ ومكان دفنه ووفاته(عقبة، 2016، صفحة 382).

كما أنه لا يغفل عن تسجيل سائر الأحداث التاريخية المهمة في حياة هؤلاء الأعلام، معتمدا على السهولة في الألفاظ والبساطة في الأسلوب مع تقديم الاستشهادات والإثباتات التي تدعم أقواله، حتى يتمكن المتلقي من فهم المقصود ويصل إلى مبتغاه المنشود من تتبع تلك السير(بلعباس و مرتاض، 2018، صفحة 56).

ولقد تنوعت المصادر التي اعتمد عليها الغبريني في عرض ترجماته، كما تأثر بمنهج من تتلمذ على أيديهم من علماء الحديث، فساعده هذا على ذكر جميع مصادره في كل خبر سمعه أو نقله، إذ اعتمد في توثيق معلوماته على الكتب والمدونات والفهارس، فضلا عن الوثائق عن طريق الاطلاع على السجلات الرسمية كالدواوين، وأيضا عن طريق الاستعانة بالنقوش الأثرية كالكتابات على القبور ما يكشف عن ما تمتع به هذا المؤرخ من وعي وحس تاريخي عميق(عقبة، 2016، الصفحات 383-386).

ثالثا: مظاهر قيم التسامح في سلوكيات علماء المغرب الأوسط من خلال كتاب: "عنوان

الدراية":

إنّ مختلف القيم التي يتحلّى بها السلوك البشري السويّ إنّما هي مستمدة من حسن الخلق، وقد أشاد الغبريني في كتابه بهذه القيمة لدى جلة العلماء الذين ترجم لهم، حيث شهد بحسن أخلاقهم وبما تحلوا به من السماحة والعفو في تعاملاتهم مع الناس، ما جعل أثرهم طيباً في الآخرين وفسح المجال أمامهم لاستقطاب أهل العلم الذين توافدوا للسمع منهم والأخذ عنهم، كما أتاح لهم ذلك فرصة تولي وظائف ومناصب هامة بدءاً من مهمة التدريس والإمامة والقضاء وغيرها، ويستوقفنا في هذا المقام أمثلة عدة عنهم منها ما أورده عن العالم الجليل الفقيه المتصوف "أبو محمد عبد الحق بن ربيع بن أحمد"، ت675هـ/1285م، من علماء بجاية والذي كان متمكناً في فنون جمّة من العلم كالفقه والأصول (أصول الدين وأصول الفقه) والمنطق والتصوف، والكتابتان الشرعيّة والأدبية، وصفه فقال: "كانت له رحمه الله أخلاق حسان لم تكن لغيره، وكان من أملح الناس نادرة على طريقة أمثاله من فضلاء أهل العلم والتخلق، وكان إذا أثني عليه بحسن الخلق يستشهد بقول النبي صلى الله عليه وسلم بأنّ "أول ما يوضع في الميزان الخلق الحسن، ومن لم يكن عنده أول ما يوضع في الميزان لم يكن عنده غيره، لأنّ هذا إنّما يجري مجرى الأساس... وكان له باطن سليم سمعته يقول: "والله ما بت قط وفي نفسي شر لمسلم" (الغبريني، 1979، الصفحات 57 - 61).

ومثله في ذلك أيضاً ما أورده عن الفقيه الجليل للقاضي المحدث "أبو محمد عبد العزيز بن عمر بن مخلوف"، ت686هـ/1287م، والذي كان عاكفاً على التدريس في الجامع الأعظم ببجاية، حيث درس عليه وانتفع بعلمه خلق كثير، وقد ولي القضاء بمدينة بسكرة ثمّ بمدينة قسنطينة، قال عنه الغبريني: "كان أكثر الناس أصحاباً وألينهم جناباً، وكان سليم الصدر لا يعرف شيئاً من الشرّ" (الغبريني، 1979، الصفحات 63 - 64).

وكذلك الشأن في ما ذكره الغبريني عن سيرة العالم "أبو العباس أحمد بن خالد"، ت نحو

سنة660هـ/1262م، وأصله من أهل مالقة بالأندلس واستوطن بجاية وتوفي بها، كان عالماً في الفقه وأصول الدين جلس للتدريس ببجاية وكان يُقرأ عليه في منزله، قال عنه: "كان أحسن الناس خلقاً وأطيبهم

نفساً" (الغبريني، 1979، صفحة 73)، والأمر ذاته نجده مع العالم الأديب النحوي اللغوي "أبو الحجاج يوسف بن سعيد بن يخلف الجزائري"، من أعيان المائة السابعة كان له مجلس علم يحضره عدد كثير من الطلبة، حيث لم يكن له عمل إلاّ الاشتغال بالإقراء و"كانت له نفس طيبة وأخلاق حسنة" (الغبريني، 1979، الصفحات 77-78)

ومثله في ذلك أيضاً "أبو عبد الله محمد بن صالح بن أحمد الكناني، ت699هـ/1297م"، الفقيه الخطيب المقرئ الصالح، من أهل شاطبة بالأندلس رحل واستوطن بجاية، كان عالماً بالقراءات متقناً فيها مجيداً لها، على معرفة بعلم العربية النحو واللغة والأدب ورواية متسعة في الحديث، قال عنه: "له خلق حسن ونية صالحة وطوية سالمة ودعوة مباركة، من تعرض له بالإذابة يُجزى،.. جلس للوثيقة والشهادة، فكان سمحاً سهلاً ولم يقع له قط وقوع في ذلك لحسن نيته وسلامة طوبته" (الغبريني، 1979، الصفحات 79-83).

وعليه يتضح بأنّ حسن سلوك علماء بجاية من البلديين أو الوافدين المستقرين بها ممن ترجم لهم الغبريني قد انعكس بشكل إيجابي في علاقتهم مع من حولهم؛ ويكفي دليلاً على ذلك هو إقبال طلبة العلم من مختلف أنحاء المغرب الإسلامي للاستفادة من علومهم ومعارفهم عن طريق حضور مجالسهم العلمية، فضلاً عن علاقات الصداقة التي أقاموها مع مختلف فئات المجتمع، كما أنّ حسن الخلق الذي تحلوا به قد أخذ مظاهر عدّة سواء في تعاملاتهم مع الناس أو مع السلطة الحاكمة، وفيما يلي أمثلة ونماذج عن تلك القيم.

-/قبول الاعتذار ورحابة الصدر:

إنّ العلاقات البشرية تتأسس وفق قاعدة أخلاقية هي "الحق في الاختلاف"، وهذا الحق يتطلب قدراً من التعددية والتعايش، وبالتالي فهو يحتاج إلى التسامح، الذي يُشكل هو الآخر فضيلة قيمية أخلاقية، تُعد من أهم المطالب الكبرى التي تتولى الصدارة في تسيير علاقات الاختلاف بين الناس (شعبان، 2011، صفحة 95)، وهذا المنطلق

الأخلاقي سعى علماء بجاية إلى تجسيده في علاقتهم مع الآخرين سواء من فئات العامة أو من أطراف السلطة الحاكمة، وتجلى ذلك في مواقف عدّة وقعت لهم من ذلك ما حصل للفقير الفاضل "أبو علي حسن بن علي بن محمد المسيلي"، ت نحو 580هـ/1185م من أعلام نهاية المائة السادسة مع أحد ولاة حكام دولة بني عبد المؤمن الموحدين، حيث طلب هذا الأخير من أحد القضاة أن يوجهه إلى الفقير أبي علي من يحدثه في أن يشتغل بشأنه ويقتصر على خاص أمره، فلما وصله رسوله وهو جالس بالجامع الأعظم محل تدريسه فيه وأخبره بالأمر، وكان من جملة من يقرأ بين يديه حفيد له، فطلب منه أن يقرأ عليه ولم يخبره بما يقرأ فاستفتح متعوذا بالله من الشيطان الرجيم، ثم تلى قوله تعالى: ﴿وَإِتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذَكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ سورة يونس الآية 71، فرجع الرسول على إثر ذلك وقد تغير لونه من رد الشيخ عليه، وكان السيد الذي أرسله قد وقع له وجع كاد أن يقضي عليه، فلما وصله الرسول وأخبره بما شاهد من حال الفقير وبما قاله له، أدرك السيد خطأه وردده إليه ليعتذر له منه ووجهه معه بصلة، فلما وصل إليه الرسول وألقى إليه ما ألقى قبل عذره ورد الصلة (الغبريني، 1979، الصفحات 33-39)، وفي هذا موقف يكشف عن نبل أخلاق علماء المغرب الأوسط وعن شيم التسامح في سلوكاتهم وكيف كانوا يقدمون المثل والقُدوة للناس في ذلك.

ومثله أيضا ما وقع مع الفقير "أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الفهري، المشتهر بالأصولي"، ت 612هـ/1215م، من أهل بجاية كان له علم بالفقه والأصلين والخلافات والجدل، كما له تقييد على كتاب "المستصفي" لأبي حامد الغزالي؛ ذكر الغبريني بأنه وقعت بينه وبين بعض أصحابه محاشنة، فخاطبه صاحبه معاتباً عليه بقوله: "تُعاملني بهذا وأنا أسنّ منك وأسنى وأجل؟" فرد عليه مداعباً بروح الفكاهة التي يرمي من ورائها الصلح معه قائلاً: نعم أسن بموسى وأسنى بسانية، وأجل في مريبك فتضاحكا واصطلحا (الغبريني،

1979، الصفحات 208-211)، وهذا أن دل على شيء فإثما يدل على ماكان يتمتع به علماء بجاية من

رحابة الصدر وروح التسامح وحسن التعامل مع الأصدقاء والخلان بغض النظر عن المواقف والظروف.

-/ قيم العدل والإخلاص:

إنّ العقل هو الأداة التي يستطيع بها الإنسان إدراك الحق، ومعنى الحق يقتضي تطبيق العدل الذي يمكن أن يوجد

في كل الأشياء، ذلك لأنّ العدل العقلي هو انسجام بين العدل الإلهي والعدل الطبيعي البشري الذي ينضبط به

النظام الاجتماعي في الإسلام، فالعدل بناء على ملكة التمييز (الحكمة) من قبيل مسابرة الدين لكنه يختلف عند

التطبيق، والأعمال المنافية للعدل هي أعمال متطرفة إما أن تتجاوز العدل أو تقصر عنه (خديري، 1998،

الصفحات 103-105)، ومن هذا المنطلق فقد حرص علماء بجاية على تطبيق العدل وإحقاق الحق في

معاملاتهم، وخاصة في الوظائف والمهام التي أسندت لهم، ولعل من أصعبها تولي منصب القضاء، والذي يتطلب

من صاحبه تجسيد قيم العدل والحق ورد الظلم وتطبيق الحدود، ولنا في ذلك أمثلة في سير تراجم عنوان الدراية ما

تجلى في موقف العالم الفقيه "أبو علي حسن بن علي بن محمد المسيلي"، ت نحو 580هـ/1185 من أعلام

أواخر المائة السادسة مع أحد أحفاده حين استنابه على منصب القضاء في مدة ولايته على إثر مرض أصابه،

فحدث أن تحاكت عند حفيده امرأتان ادعت إحداهما على الأخرى أنّها أعارتها حليا ولم تُعده إليها، وأنكرت

الأخرى ذلك فشدّد على المنكرة حتى اعترفت وأعادت الحلي، فلما عرض على جده المسألة أنكر عليه ذلك وجعل

يعتب على نفسه تقديمه لذلك، مستشهدا له بحديث النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الشأن قوله: "البينة على

المدعي واليمين على من أنكر" (مسلم، 2006، صفحة 818)، وأنّه صلى الله عليه وسلم لم يقل باستخدام

أسلوب التهديد والتخويف على من أنكر، ثمّ استدعى شاهدين وأشهد بتأخيره، وكان ذلك "من ورعه ووقوفه مع

ظاهر الشرع رحمه الله" (الغريبي، 1979، صفحة 37)

كما أنّ قيم العدل وإحلال الحق والمساواة كانت مجسدة في مواقف عدة واجهتهم في حياتهم أو خلال توليهم لوظائفهم كحال الفقيه الفاضل "أبو العباس أحمد بن محمد بن حسن"، ت693هـ/1294م، القاضي الشهير من أهل بلنسية والذي رحل إلى بجاية واستوطنها، وتخطط فيها بالعدالة حيث ولي بها القضاء وجلس للوثيقة، وكان ممن يُشار إليه بالنباهة والرياسة والسياسة، وقد أشاد الغبريني بمهارته في إدارة شؤون القضاء وعلمه بالأحكام ما جعل فترة توليه القضاء تكون مميّزة حيث قال عنه: "فظهر من نبلة في القضاء ومعرفته بوجوه الردّ والإمضاء ما عجز عنه من تقدمه من القضاة، وكان مقدما في فصل الأحكام وعارفا بمواقعها على التمام، وكانت له صلابة وسياسة ووقوف مع الحق... فقام بأمر الناس ووقف خير موقف،... وظهر من عقله وفضله ونبلة وجدده واجتهاده ما حمد به أمره وجلّ به قدره" (الغبريني، 1979، الصفحات 119-121).

وعليه يتضح بأنّ تجسيد قيم العدل من خلال حفظ الحقوق ورد المظلمات وتطبيق الأحكام كان السّمة البارزة في سلوكات علماء بجاية، وهي مظهر يعكس انتشار العدل والأمن الذي حرصوا على نشره بين فئات الناس بالمجتمع البجائي خلال القرن 7هـ/13م، ما خلق جوّاً من الرضى والتسامح والعيش بسلام.

-/ قيم الصبر على المحن والبلاء:

لقد أولى الله عز وجل عناية بالغة للصبر في القرآن الكريم، حيث ذُكر في نيف وسبعين موضعا، لما له من قيمة كبيرة دينية وحُلقية، فهو ضرورة لازمة للإنسان ليرقى ماديا ومعنويا ويسعد فرديا واجتماعيا، والصبر على قول الإمام الغزالي ضربان: أحدهما بدني كتحمل المشاق بالبدن والثبات عليها وهو إمّا بالفعل كتعاطي الأعمال الشاقة من العبادات أو غيرها، وإمّا بالاحتمال كالصبر على الضرب الشديد والمرض المؤلم والجراحات (القرضاوي، 1989، الصفحات 8-12).

وعليه فإنّ المحن ضرورة لأهل الإيمان لامتحان صبرهم، يقول تعالى في سورة آل عمران الآية 142 "أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمِ الصَّابِرِينَ"، وفي قيمة الصبر قال أبو طالب المكي في كتابه "قوت القلوب": "اعلم أنّ الصبر سبب دخول الجنة وسبب النجاة من النار"، وقال أحدهم:

لا تحسب المجد تمر أنت آكله لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبر

وبالصبر تتحقق الآمال وتنجح المقاصد، ولا يؤتى عمل أكله إلا بالصبر، فمن صبر ظفر(القرضاوي، 1989، الصفحات 13-14)، ولقد كانت قيمة الصبر مجسدة في سلوكات علماء بجاية ممن أورد الغبريني أمثلة ونماذج عنهم، من خلال ما ساقه من روايات حول مواقف تعرضوا لها وامتحانات وابتلاءات اعترضت طريقهم، ومع ذلك أظهروا شجاعة ورباطة جأش وقوة على تحمل الصعاب والمحن، من غير أن يتعدوا على الآخرين أو يتسببوا في الأذية لأحد متحملين ومكابدين مشقة الصبر على أمل الرجاء في خير الله وفضله وفرجه، مظهرين التسامح والعفو حتى مع من كان سببا في محنتهم، من ذلك ما وقع مع الفقيه الفاضل "أبو الطاهر عمارة بن يحيى بن عمارة الشريف الحسني"، ت بعد 585هـ/1189م، وهو من علماء أواخر المائة السادسة، في محنة الأسر على يد بني غانية الميورقيين(واعظ، 2008، الصفحات 5-19) الذين اشتدت وطأتم على أهل العلم واعتقلوا منهم أناسا كان من جملتهم الفقيه "أبو الطاهر عمارة الشريف" الذي بقي مع أصحابه معتقلا مدة من الزمن وهو مصنف في الحديد، وكان يريد أن يحتج عن الوضع لكنه لم يجد لذلك سبيلا إلى أن زال عن لسانه عُقاله فكتب بقصيدة إلى الوالي الذي تلقاها بالقبول، وشفع فيه وفي أصحابه جده النبي صلى الله عليه وسلم فكان مما نظمه فيها قوله:

سلام كعرف المندل الرطب في الجمر وإلا كما هب النسيم على الزهر

فله در مقلتين بعبرة تعبر فوق الخد من كامن السر

ونار بأكبادي أكابـد حرها وقلب سليم قلب في لظى جمـر
فلم أنس توديع البنين مصفدا وأصغرهم يجري وأدمعه تجـري
أبا زيد إني بالحسين وسيلتي وجدي شفيع الناس في موقف الحشر (الغبريني، 1979،
الصفحات 45 - 48).

وكذلك ما وقع مع الفقيه الجليل "أبو عبد الله محمد بن علي الطائي"، الشهير بمحي الدين بن عربي، ت638هـ/1240م، أصله من مرسية، قرأ القرآن على "أبي بكر بن خلف" بإشبيلية بالسبع، وهو فيلسوف من العلماء المهتمين بعلم الكلام، وكانت له عدة رحلات إلى الشام ومصر والعراق لقيه جماعة من العلماء والمتعبدين وأخذوا عنه "وله قدم في الرياضة والمجاهدة وكلام على لسان أهل التصوف، ووصف بالتقدم والمكانة من أهل هذا الشأن بالشام والحجاز" وله أصحاب وأتباع (المقري، 1988، الصفحات 162 - 163)، ألف تأليف في التصوف والتفسير وغير ذلك منها كتاب الجمع والتفصيل في معاني التنزيل، وكتاب كشف المعنا عن تبيين الأسماء الحسنا، وكتاب الإعلام بإشارة أهل الإلهام (المكناسي، 1973، صفحة 281)، دخل بجاية سنة سبع وتسعين وخمسائة، وقد نقد عليه أهل الديار المصرية بعض ما صدر عنه في علم الكلام وعملوا على إراقة دمه، فتدخل وشفع له في تلك القضية وكان المخلص له من تلك المحنة الشيخ العالم "أبو الحسن علي بن أبي نصر فتح بن عبد الله البجائي"، ت652هـ/1254م (الغبريني، 1979، الصفحات 137 - 141)، الذي بقي "ساعيا في أمره ومظهرها وجوه التأويل في شأنه ما اقتضى الإعراض عن زلته والمساحة في هفوته" (الغبريني، 1979، الصفحات 156 - 158).

-/ حسن الرد أثناء الخلاف:

إنّ الاختلاف بين الناس طبيعة بشرية وسنة كونية، به تتحقق قاعدة التعددية والتعايش وبالتالي فهو يحتاج إلى مبدأ التسامح، إذ قد يؤدي الاختلاف إلى وقوع الجدل والخلاف، ما يجعل الشخص ينظر للمخالف له في الرأي أو الفكر أو المعتقد بمثابة خصم يلجأ معه إلى المحاججة قصد تصحيح كلامه أو رد شبهته أو تضعيف دليله بحجة (إبراهيم، د، ت، الصفحات 17-18).

في حين أنّ الحكمة عند الخلاف تقتضي حسن الرد وضبط النفس، وأن يتوقع كل من الآخر بعض الجهل واحتمال الخطأ، قال تعالى في سورة الأعراف، الآية 199 " خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ".

فحسن الرد أثناء الخلاف يتطلب الاعتدال والتوسط في كل شيء في التعامل، في الحوار، في الأحكام والآراء والمواقف والسلوك، في العلاقة مع الآخرين بدون غلو أو تقصير (إبراهيم، د، ت، صفحة 39).

وإذا بحثنا في سير تراجم الغبريني في عنوان الدراية لوجدنا أمثلة عدّة عن حياة هؤلاء الأعلام ومواقفهم وتصرفاتهم أثناء تعرضهم للاختلاف مع الآخرين؛ سواء كانوا علماء مثلهم أو شخصيات من الطبقة الحاكمة أو من العامة، حيث برزت مظاهر حسن إدارتهم للحوار وما اتسموا به من الرصانة في الرد والاستدلال بالحجة والعلم وقوة الاستدلال والبرهان، مثاله الموقف الذي عاشه الفقيه الجليل عالم بجاية "أبو الفضل بن محمد بن علي بن

طاهر"، ت حوالي 598هـ/1202م من علماء أواخر المائة السادسة، والذي كان أديبا بارعا وكاتباً مجيداً، وصفه

الغبريني فحلاه بقوله: "له علم متسع المدى، وتخصص ووقار، له الهمة السنية والأخلاق المرضية، وكان وجيهاً

مكرماً" (الغبريني، 1979، صفحة 53)، حيث استدعاه الخليفة "أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن" (محمد،

2015، الصفحات 57-68)، ليتولى منصب كاتب سره فظهر في هذا المنصب مقدرته وروعة أسلوبه وبيانه،

ومع ذلك حدث أن وشي به عند الخليفة بسبب أنه كان إذا استدعاه وأعجله "يتأني ويأتي على التؤدة والوقار

وإصلاح الهيئة واستكمال الزينة، فلما حضر بين يدي الخليفة وعاتبه عن ذلك، أجاب: "يا أمير المؤمنين أنت إمام

المسلمين، وما أحسب أنّ محل الإمامة إلّا كمحل الصلاة، فكما آتى إلى الصلاة آتى إلى هذا المحل"، واستدل بقوله صلى الله عليه وسلم: "إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون واتوها تمشون وعليكم السكينة، فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فأتموا" (مسلم، 2006، صفحة 272)، فاستحسن ذلك منه أمير المؤمنين وزاد في تقريبه وتركه على حاله (الغبريني، 1979، الصفحات 53-55)، وفي هذا الموقف صورة مشرّفة لتمثل قيمة التسامح في الرد على الحاكم واستخدام أسلوب الحجة والإقناع لرد كيد الوشاة بالحكمة وحسن المقال، ولا يقدر على هذا إلّا جبلة من العلماء الأفداد.

ومن ذلك أيضا ما وقع مع العالم الفقيه الزاهد "أبو الحسن علي بن أحمد بن الحسن بن

إبراهيم"، ت638هـ/1241م، وكان يجمع بين علوم عدة منها: أصول الفقه وأصول الدين وعلم الطبيعيات والمنطق وله في ذلك مصنفات؛ فعلى الرغم مما كان يتصف به من خُلق كريم، حيث تحدث الغبريني عنه في ذلك فقال: "كان أحسن الناس خُلُقًا، ولقد سمعت عنه أنّه قال: "أقمت عازما في جهاد النفس مدة من سبعة أعوام"، إلّا أنّه كان مُبتلى بإطلاق النَّاس عليه وإسماعهم ما لا يليق في جهته، إذ حدث أن جاءه رجل يوما بسكين في يده يريد قتله، فحدثه بلطف وطلب منه الجلوس، ثمّ سأله: "على ماذا تقتلني؟ فقال له قيل لي عنك أنك كافر، فقال له: الناقل إن كان عندك كاذبا فما يحل لك قتلي، وإن كان صادقا فأنا أشهد أنّ لا إله إلّا الله وأنّ محمد رسول الله"، فتاب الرجل بين يديه وجدد إيمانه أمام الشيخ (الغبريني، 1979، الصفحات 143-155).

وكذلك الشأن في الخلافات التي كانت تقع جراء المناظرات العلميّة، حيث اتصف العديد من العلماء بالحكمة والذكاء وقوة الحجة وسعة المعرفة التي تؤدي إلى الإقناع بالأدلة والبراهين، بحيث يقتنع الطرف الآخر وتقع المراضاة من دون أن يصل الأمر إلى النزاع والقطيعة أو الكره، وهو مظهر من مظاهر التسامح الفكري، ونسوق في هذا الشأن ما أورده الغبريني في سيرة أحد جهابذة علماء بجاية وهو الفقيه القاضي "أبو العباس أحمد بن عيسى بن عبد الرحمان"، ت682هـ/1283م، والذي كان عالما بأصول الفقه وأصول الدين، وله مشاركة في علم الأدب،

وكانت له رحلة للمشرق حيث قرأ هناك واجتهد وأتقن (التبكي، 2000، صفحة 79)، وكان ممن يُستفاد من دروسه وعلمه، وتقع المناظرة في مجلسه، من ذلك أنه كان "يجيء بالمسألة الخلافية فيرتضي أحد وجهيها وتحدد القرائح، فيكثر البحث إلى أن يظهر الرجحان ويقع التسليم، ثم يأخذ الطرف الآخر ويلزم أصحابه ما كان هو يُناظر عليه، فلا يزال إلى أن يظهر الرجحان في ذلك الطرف ويقع التسليم، وهذا من حدة فكره وجوده نظره" (الغبريني، 1979، الصفحات 93 - 95).

-/ التسامح الديني:

لقد ظهر هذا المبدأ جليا في سلوكات علماء المغرب الأوسط في تصرفهم ومواقفهم مع غير المسلمين من أهل الكتاب، خاصة في المناظرات العلمية التي كانت تقع بينهم، حيث أظهروا جانبا يعكس قيم التسامح والتعايش الذي أرساه الإسلام في معاملات المسلمين مع غيرهم من أهل الكتاب، وقد كان التسامح الديني الذي مارسه النبي صلى الله عليه وسلم إحدى وسائل ازدهار الحضارة العربية الإسلامية.

ولقد أقرت المواثيق الدولية في زمننا هذا بمسألة التسامح الديني المتعلقة بحرية المعتقد، وأن لكل فرد الحق في حرية الفكر والدين، ويشمل هذا الحق حريته في الانتماء إلى أحد الأديان أو العقائد باختياره، ولا يجوز تعريض أحد لإكراه من شأنه أن يُخلّ بحريته، مع احترام حرية الآخر في انتماؤه واختياره العقدي، من ذلك ما هو معلن عنه في ميثاق الأمم المتحدة، وفي الإعلان العالمي لحقوق الإنسان (سليمان و حسين أحمد، 1986، الصفحات 92-95).

والحقيقة أنّ الحضارة الإسلامية كانت سباقة في ذلك، والدليل هو مواقف علماء المغرب الأوسط البجائيين التي تميّزت بالتسامح الديني مع غيرهم من الذميين، واحترام فكرهم وعقائدهم حتى أثناء الدخول في المناظرات الفكرية والدينية معهم، وفي هذا الصدد تستوقفنا واقعة برز فيها موقف أحد علماء المغرب الأوسط وهو الشيخ الجليل

الفاضل " تقي الدين الموصللي " من أعلام القرن السابع الهجري، والذي أقام ببجاية مدة من الزمن، ذلك أنه لما دخل في إحدى زيارته إلى صقلية وسمع القساوسة بدخوله طلبوا من الإمبراطور "فردريك الثاني" ملك صقلية أن يستدعيه لمجلسه، فلما حضر طلب القساوسة أن تقع مناظرة بينهم وبينه في أمر النبيين محمد وعيسى عليهما السلام، فخطب الملك بأنه يقبل ذلك بشرط قائلا: " إن قبلتموه ناظرتكم وإلا فلا، قالوا: وما هو الشرط؟ قال: أن لا تتعصبوا أنتم لعيسى ولا أتعصب أنا لمحمد، وإنما نسقط التعصب من بيننا ونبحث طالبين للحق، فلما علم الإمبراطور والحاضرون معه بأنه ما قصد بهذا الكلام إلا إفحامهم، لأنهم ليس عندهم إلا مجرد التعصب امتنعوا عن مناظرته وحملوه على الإكرام والبرّ إلى أن انفصل عنهم"، وكذلك كان شأنه في كل إقليم يدخله من أقاليم الادميين من الترك والسودان وغيرهم(الغبريني، 1979، الصفحات 180-182)، وهو موقف يكشف عن قوّة الحجّة وبيان البرهان الذي كان يتمتع به علماء المسلمين في مناظراتهم الفكرية مع غيرهم من أهل الكتاب، ويزر براعة الردّ في إظهار عالمية رسالة الإسلام، وشموليتها عن باقي الرسائل والديانات السموّية الأخرى حتى وإن امتنع أتباعها عن الاعتراف بذلك.

وفي ختام هذا البحث يمكننا الوقوف على النتائج التالية:

- يعد كتاب عنوان الدراية للغبريني مصدرا تاريخيا ترجميا هاما أرخ لسيرة وحياتة علماء مميّزين بالمغرب الأوسط في حاضرة بجاية، برعوا في مجالات فكرية عدّة خلال القرن 7هـ/13م، وكان لهم تأثير فاعل على الحراك الفكري والثقافي والاجتماعي بالمدينة.

- لقد أظهرت المواقف التي عايشها العديد من علماء المغرب الأوسط البجائيين أو الوافدين عليها والمستقرين بها من الأندلس والمشرق، مدى الحكمة التي تمتع بها هؤلاء في سلوكاتهم؛ من خلال التصرفات التي صدرت عنهم في خضم المواقف التي عايشوها والتي برزت فيها قيم التسامح لديهم من عفو عن الناس وتقبل للاختلاف الفكري والديني والتباين العقدي.

- تقدم هذه النماذج من السير العطرة صورة مشترقة عمّا تميّزت به حضارة بلاد المغرب الأوسط "الجزائر" خلال العصر الإسلامي المزدهر، انطلاقاً من الصورة التي عكسها أعلام البلاد في منجزاتهم الفكرية والعلمية، والتي تمثل صفحات خالدة في سجل التاريخ للاقتداء بهم.

قائمة المصادر والمراجع:

1. إبراهيم جدالة. (2015). القضاء والقضاة ببجاية أثناء القرن 7هـ/13م من خلال عنوان الدراية. مجلة عصور الجديدة، 5(18)، الصفحات 189-201.
2. ابن قنفذ القسنطيني. (1983). كتاب الوفيات (الإصدار 4). (عادل نويهض، المحرر) بيروت: دار الآفاق الجديدة.
3. أبي الحسن مسلم. (2006). المسند الصحيح المختصر من السنن (الإصدار 1، المجلد 2). الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع.
4. أحمد التنبكي. (2000). نيل الابتهاج بتطريز الديباج (الإصدار 2). (عبد الحميد عبد الله الهرامة، المحرر) طرابلس، ليبيا: دار الكاتب.
5. أحمد المقرئ. (1988). نفع الطيب في غصن الأندلس الرطيب (المجلد 2). (إحسان عباس، المحرر) بيروت: دار صادر.
6. أحمد بن القاضي المكناسي. (1973). جدوة الاقتباس في ذكر من حلّ من الإعلام مدينة فاس. الرباط: دار المنصور للطباعة والوراقة.
7. السعيد عقبة. (2016). المؤرخ أبو العباس أحمد الغبريني "644-704هـ/1246-1304م" وكتابه عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية. مجلة المعارف والبحوث والدراسات التاريخية، 2 (4)، الصفحات 379-396.
8. الغبريني. (1979). عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية (الإصدار 2). (عادل نويهض، المحرر) بيروت.
9. النباهي. (1983). قضاة الأندلس "المراقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا" (الإصدار 5). بيروت: دار الآفاق الجديدة.

10. عادل نويهض. (1980). *أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر* (الإصدار 2). بيروت: مؤسسة نويهض الثقافية للنشر والتوزيع.
11. عبد الحسين شعبان. (2011). *فقه التسامح في الفكر العربي الإسلامي "الثقافة والدولة"* (الإصدار 2). أربيل، العراق: دار آراس للطباعة والنشر.
12. عبد الله بن إبراهيم. (د،ت). *فقه التعامل مع المخالف*. الرياض: دار الوطن للنشر.
13. عطا الله محمد. (2015). *المغرب والأندلس على عهد الخليفة أبي يعقوب يوسف الموحد* "558-580هـ/1163-1184م (أطروحة دكتوراه). قسم التاريخ، الأردن: جامعة مؤتة.
14. مجيد خدوري. (1998). *مفهوم العدل في الإسلام* (الإصدار 1). دمشق، سوريا: دار الحصاد للنشر والتوزيع.
15. نجاة بلعباس، و محمد مرتاض. (2018). *الغبريني مترجم سير علماء بجاية. مجلة الفضاء المغاربي، 2 (4)، الصفحات 52-61.*
16. نورية واعظ. (2008). *أثر ثورة بني غانية على الدولة الموحدية* "580-633هـ/1184-1235م" (رسالة ماجستير في التاريخ الوسيط). بوزريعة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية "قسم التاريخ والجغرافيا"، الجزائر: المدرسة العليا للأساتذة.
17. وليم سليمان، و محمد السماري وآخرون حسين أحمد. (1986). *التسامح الديني والتفاهم بين المعتقدات* (الإصدار 1). نشر مركز اتحاد المحامين العرب للتراث والدراسات القانونية.
18. يوسف القرضاوي. (1989). *الصبر في القرآن* (الإصدار 3). القاهرة، مصر: مكتبة وهبة.